مدينة الفكر الإسلامي

للدكتور

حسن فتح الباب

١٣٩٥ هجرية (١٩٧٥م) بماضيها التليد في العصور الوسطى ، اذ كانت مركزا للفكر العربي الاسلامي ومنارا ثقافيا يقصده طلاب المعرفة طوال ثلاثة قرون تقريبا . وكانت تنافس بما بلغته من مكانة مرموقة مدن المغرب العربي ولا سيما فاس والقيروان ، بل مدن المشرق العربي ايضا ، وقد هيأ لتلك المدينة العريقة ذلك المركز العلمي والحضاري عدة عوامل اهمها ما تتمتع به من موقع جغرافي استراتيجي ممتاز جعل منها مركزا تجاريا وثقافيا كبيرا يربط بين الشمال الافريقي والاندلس ، وملتقى طريقين من اهم طرق المغرب العربي ، احداهما تصل الشرق بالغرب ، والاخرى تربط بين الشمال والجنوب ، وكانت تعتبر خلال مدة طويلة سبيل الذهب . وبالاضافة الى هذه الميزات الجغرافية ، فان وفرة اراضيها الخصبة ومياهها العذبة جذبت اليها كثيرا من الاقوام إلتماسا لطيب المقام والحياة الرغدة ، وان كانت هذه العوامل قد جعلتها مسرحا للصراع في

العصرين الوسيط والحديث بين القوى السياسية المتنازعة ومطمعا للدول الاوروبية ، فكانت محاصرة او مهددة بالحصار في كثير من الاحيان . وهدمت واعيد بناؤها في كل مرة على يد القوة الغالبة لتتخذ منها ركيزة ومستقرا او نقطة وثوب للتوسع . وهكذا تعددت الممالك والدول التي عرفتها تلمسان ، اذ تعاقب عليها الرومان والادارسة والمرابطون والموحدون والزيانيون والمرينيون ثم الزيانيون مرة اخرى ، وقد اعقبهم الولاة الاتراك الذين استمر حكمهم ثلاثة قرون اعقبها عصر الاستعمار الفرنسي البغيض منذ نهاية الثلث الاول من القرن الماضي حتى اندثر على يد المجاهدين الجزائريين الاحرار واستقلت الجزائر سنة ١٩٦٢م .

ومازالت في تلمسان بعض اثار الحضارة الاسلامية التي ازدهرت بها في عهود الممالك المتوالية ، وفي مقدمة هذه المنشآت ذات القيمة التاريخية الاسلامية مساجدها ومدارسها ، واقدمها الجامع الكبير الذي بناه المرابطون في القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو يشبه الى حد كبير مسجد قرطبة في فنه المعماري ولا سيما ساحة الصلاة والمحراب والقبتان . ومن اشهر مساجد تلمسان مسجد بلحسن وهو تحريف اسم ابن الحسن اخي العالم المشهور أبى اسحق ، وقد بناه عثمان ابن يغموراسن سلطان الزيانيين ، ومسجد سيدي أبى مدين نسبة الى الفقيه شعيب أبى مدين الاندلسي الاصل اذ ولد في اشبيلية سنة ١١٢٦م ، ودرس في فاس بالمغرب في عهد الموحدين ، كما درس في مدينة بجاية بالجزائر ، وكان زاهدا متصوفا . وكذلك مسجد سيدي الحلوي الذي بني في عهد المرينيين ، والحلوى هو الشيخ ابو عبد الله الشودسي الذي نشأ ايضا في اشبيليه ، وكان قاضيا متصوفا ، طاف في بلاد المغرب حتى استقر في تلمسان في اوائل القرن الثالث عشر . وثمة مساجد اخرى شيدت في تلمسان خلال العصور المختلفة ، ولم يزل بعضها قائما حتى الان مثل جامع اولاد الامام الذي يرجع الى عهد المرينيين . ولكثرة هذه المساجد تعد تلمسان بحق مدينة المآذن ولولا ان الاستعمار الفرنسي اهمل شأنها ، ولم يعن الاتراك ايضا بترميمها ، لاحتفظت المدينة بكثير منها .

وتضم مسجد ابي مدين وضريحه ومسجد الحلوي « قرية العباد » التي تقع في الجنوب الشرقي من تلمسان على منحدر هضبة عالية : وهي تزخر بالاثار التاريخية التي خلفها السلطان المريني ابو الحسن لتخليد العلماء والزهاد في عصره وليدخل بصنيعه هذا في قلوب الاهلين لما عرفوا به من تقدير عميق لاهل العلم والصلاح ، ومن ارتفاع مكانة العلماء عندهم على مكانة الامراء . وتحوي هذه القرية اثار قصر ومدرسة الى جانب المسجدين والضريح . وقد ووري في مقبرتها كثير من رجال الفقه والتصوف ، فهي اشبه بمقبرة العالية مثوى الشهداء في الجزائر العاصمة . بيد ان بعض اهل المدينة ممن لم ينالوا قسطا من التعليم يبلغون في تقديرهم لاولئك الرجال مرتبة تكاد تقرب من التقديس اذ يعدونهم من اولياء الله ويعتبرون كل ما يصيبهم من نعم من فيض بركاتهم ، ويعتمدون عليهم

بعد الله في حماية مدنهم ومنشآتهم . ومن ثم تختلط الحقائق بالاساطير فيما يتعلق بسير هؤلاء الزاهدين نظرا لما تنسبه اليهم العامة من افعال كالخوارق . ولا شك ان انتشار مذاهب المتصوفة في عهد المرابطين والموحدين وسوء فهم العامة للاصول الشرعية قد ساعدا على ذلك . كما ان بعض اصحاب الطرق قد لعبوا دورا كبيرا في هذا الشأن دعمه المستعمرون ومبشروهم بعد الغزو الفرنسي ، كما استغله بعض مؤرخيهم المتعصبين في تشويه الاسلام والمسلمين .

ومع ذلك ، فانه من الثابت تاريخيا انه نشأت ـ الى جانب حركة التصوف ذات الاتجاهات المعتدلة والمغالية ـ نهضة ثقافية عربية اسلامية كبرى عمت تلمسان وسائر بلاد المغرب العربي ، تدل على ذلك المؤسسات الحضارية التي اشاد بها الخبراء والعلماء الاوربيون غير الحاقدين ، والتي تقع المدارس موقع الصدارة منها . وقد كانت هذه المدارس ـ التي اكثر الحكام المسلمون من بنائها ـ مقصدا لرواد العلم والمعرفة من اهل الاندلس والمغرب ، وبفضلها غدت تلمسان احدى العواصم الثقافية الكبرى . فكان المسجد بمحرابه تجاوره المدرسة بمكتبتها . ولا يخفى الدور الاجتماعي الكبير الذي يقوم به المسجد الى جانب دوره الديني بل ان الجوامع الكبرى كانت اشبه بالجامعات العلمية كما هو الشأن بالنسبة للجامع الازهر بالقاهرة وجامعي الزيتونة في تونس والقرويين بالمغرب . ومن ثم يحق القول ان مدارس تلمسان كانت محل عبادة ومنجم علماء وفلاسفة ومثقفين في نفس الوقت . بل ان الزوايا قامت الى جانب المدارس والمساجد بدور في نشر اللغة العربية والاسلام ، اذ لم تتعرض لها السلطات الفرنسية بل تركتها لابناء الشعب ، ظنا بان اقبالهم عليها من شأنه ان يلهيهم عن الاستعمار ويصرفهم عن السياسة والنضال الوطني ، فافاد من ذلك طلاب العلم في الحفاظ على لغتهم وشخصيتهم .

ويؤكد الباحثون الاجانب انفسهم ان تلمسان كانت تعد في الفترة ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر للميلاد مدينة العلماء ، ومجمع المدارس ومزار الحكماء من مختلف ارجاء العالم العربي والاسلامي . وكان لحكامها مآثر غير منكورة في هذا الميدان ولا سيما في عهد بني زيان ازهى عصور تلمسان ، اذ كانوا يبنون الى جانب قصورهم مساجد تضاهيها في عظمة البنيان في اغلب الاحيان . كما اولوا دور التعليم والقائمين عليها رعايتهم ، تقديرا لرسالة العلم ، واستجابة لما عرف عن التلمسانيين من اجلال للمعرفة . وقد اوقفوا على هذه المدارس اراضي وحدائق ومطاحن وحمامات للانفاق من ريعها على المعلمين والطلاب وصيانة المباني . ولم يحل الاصل البربري لهؤلاء الحكام المسلمين دون تشجيعهم التدريس باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والحضارة الاسلامية ، واحتفالهم بالمولد النبوي في قاعة القصر الزياني بين ابناء الشعب المتجمعين في حلقات ادبية يتبارى فيها الشعراء ويحضرها السلطان . ويبرز بين هؤلاء الحكام بصفة خاصة السلطان يغموراسن الكبير ، اذ كان شغوفا بالثقافة العربية ، مطلعا عليها ، حريصا على حضور حلقات الدراسة في الجامع الكبير رغم انه لم يكن يتحدث الا باللهجة

البربرية ، واليه يرجع الفضل في اجتذاب علماء العرب المشهورين الى عاصمته تلمسان .

ومن اهم المدارس القديمة في تلمسان « مدرسة العباد » التي نوهنا بها انفا والتي كان ينقطع بها للدراسة الباحثون عن المعرفة ويلقي بها العلماء محاضراتهم . ولم يقتصر بعض هؤلاء العلماء على دراسة العلوم الدينية ، بل جمعوا بينها وبين العلوم الاخرى ، اذ لم يكن ثمة تخصص علمي في ذلك الزمان ، بل كان العلماء موسوعات جامعة حية ، تقاس مراتبهم بمعيار الشمول وسعة المعرفة مع الدقة وحدة الذهن والقدرة التعبيرية . وكان اكثرهم يجمعون بين العلم والعمل الصالح والزهد الذي يبلغ درجة التنسك ، ولا سيما ان النساك كانوا منتشرين انذاك في ربوع المغرب الكبير ، وقال عنهم مستشرق في دراسة علمية موضوعية « انهم يحسنون التوفيق بين العلم والتخيل وبين التقشف والعبادة » . ومنهم من كان فارسا مجاهدا في الحروب . ولعل ذلك من الاسباب الظاهرة التي ذكرناها من قبل ، وهي نظرة البسطاء من الناس الى هؤلاء العلماء الورعين البسلاء بصفتهم اولياء الله ، واحبابه ، وحماة مدينتهم الذين يصدون عنها غائلة المغيرين ، وتناقل الناس عديدا من الروايات التي تجمع بين الواقع والخيال في مآثر هؤلاء الرجال الابطال . ويكفي ان يذكر منهم « سيدي محمد بن علي » الذي قاد ثورة التلمسانيين ضد الاتراك في القرن السابع عشر .

وقد ذكر المؤرخان ابن مريم والتنسي (القرن الرابع عشر الميلادي) في مؤلفاتهما قائمة تضم اكثر من ثلاثمائة عالم عاشوا في تلمسان ، وامسكوا بزمام حياتها الثقافية في العصور الوسطى ، ومن بينهم الحافظ بن مرزوق ، وابو عبد الله الشريف ، وابراهيم المعمودي ، وسعيد العقباني ، وابن ذكرى ، والابلي ، ومحمد ابن عبد الكريم المغيلي ، وابن يحيى الونشريسي . وجلهم تعمقوا في دراستهم الفقهية ، وتوسعوا في العلوم الاخرى ، وصنفوا مؤلفات مازال بعضها يحمل افكارا لم يتجاوزها عصرنا . ومنهم من شغل مناصب هامة في العواصم العربية القديمة كفاس وغرناطة وتونس والقاهرة ، مثل مناصب الفتوى والقضاء والتدريس .

ويحظى الحافظ بن مرزوق بمكانة خاصة بين هؤلاء العلماء ، وقد عاش بين سنتي ١٣٦٤ ، ١٤٣٨م ، وعرف على نطاق واسع في تلمسان ، اذ شرح مؤلفات العالم الفيلسوف اليوناني سقراط ، والف كتابا في الفتوة ، وتخصص في تفسير القرآن ، ونظم قصيدة بعنوان « البردة » . وتدل هذه المؤلفات جميعا على سعة ثقافته .

ومن ابرز الشخصيات التاريخية التي عرفتها تلمسان المفكر العربي الاسلامي الكبير عبد الرحمن بن خلدون الذي يعد من العبقريات النادرة في العصور الوسطى (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) ، اذ وضع لاول مرة اصول فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، وله افكار تدخل في صميم الفكر الاقتصادي وان لم تشكل نظرية اقتصادية بالمعنى

الحديث . وقد تنقل في بلاد المغرب والاندلس ، ثم اقام بتلمسان حيث شرع في تأليف مصنفه التاريخي الكبير : « العبر وديوان المبتدأ والخبر في اخبار العرب والعجم والبربر » . وقد اتمه وكتب مقدمته الشهيرة ـ على ارجح الاقوال ـ في قلعة ابن سلامة بقرية تاقزوت التابعة لولاية تيهارت بالجزائر ، وذلك بعد ان غادر تلمسان وقبل ان يتوجه الى القاهرة . وهو يذكر انه خلال اقامته في تلمسان قصد الى مدرسة العباد في ضواحيها ، ملتمسا فيها الاعتكاف قليلا والتقاط الانفاس من عناء رحلاته الطويلة وعبء المناصب الادارية التي تولاها ، ومواصلة التحصيل ، وقال في ذلك ما معناه : « لقد توجهت الى مدرسة الشيخ ابي مدين فرارا من الشئون المدنية وطلبا للدرس بقدر ما يسمح لي بذلك » .

ويلي ابن خلدون في الاهمية العلمية لمؤلفاته الجغرافي المؤرخ ابو العباس احمد ابن محمد التلمساني المعروف بالمقري المتوفي سنة ١٠٤١هـ (١٦٣١م) . وكان اديبا مشاركا في علوم الكلام والحديث والتفسير . وقد ولد في تلمسان وتوفي بمصر حيث كان قاضيا . واشهر مؤلفاته كتابه في تاريخ ممالك الاندلس والمغرب « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » ، ومازال يدرس حتى الان في الجامعات العربية . وله كتاب بعنوان « تعاليق حول مبادىء الحق » . ومن علماء تلمسان الشيخ محمد بن يوسف السنوسي (١٤٢٨ ـ ١٤٩٠م) الذي قال عنه احد المستشرقين انه قدم للعلم ما قدم ابن خلدون للتاريخ وعلم الاجتماع . وقد اسس تيارا فلسفيا انطلاقا من مبدأ وحدانية الله . ومن مؤلفاته كتاب العقيدة في عدة اجزاء (العقيدة الكبرى ، الوسطى ، الصغرى ، واخيرا المقدمة) . كما الف في علوم الطب والرياضيات والفلك وقد خلف اكثر من اربعين مصنفا في هذه العلوم وفي المنطق والنحو ، الى جانب العلوم الدينية والتصوف . وهو يعد فخر الفكر الاسلامي في اواخر القرن الخامس عشر . وقد توفي في بلدته تلمسان وله ضريح يزار في قرية العباد . ومن تلامذته عبد الكريم المغيلي الذي توفي في مدينة كانوا (نيجيريا) حيث اسس اول جامعة اسلامية في هذه المدينة .

ويقترن اسم الشيخ السنوسي باسم الشيخ ابي عبد الله الشوديسي المشهور بسيدي الحلوي ، اذ كان كلاهما من شيوخ المدرسة التلمسانية العريقة ، رغم ما يفرق بينهما من فاصل زمني . وقد ولد الشيخ ابو عبد الله ، واقام في اشبيلية بالاندلس حيث اشتغل بالقضاء بفضل تمكنه من علم التشريع ، واعتنق المذهب الصوفي . ورحل الى المغرب ثم الى تلمسان في القرن الثالث عشر ، ودفن في مقبرة العباد حيث اقيم له ضريح ومسجد باسمه . وقد عرف عنه انه من تلاميذ ابني الامام محمد التنسي والشيخ الابلي ، ذلك العالم الذي كان له دور راجح في تكوين ابن خلدون . ويروي المؤرخون عن الشيخ ابي عبد الله انه درس مبادىء المنطق اليوناني والحساب والهندسة والطب والفلاحة والموسيقى . وكان طلب العلم شغله الشاغل .

ومن علماء تلمسان الذين جمعوا بين العلوم الدينية والعلوم الاخرى احمد ابو

يحيى الحباق ، اذ تخصص هذا الفقيه في علم الاسطرلاب (الفلك) ، وترك مؤلفات قيمة مازالت تدرس في الجامعات الاوروبية منها « رسالة السفر » وتعليقه على كتاب الفقيه وعالم الرياضيات المراكشي ابي العباس احمد بن البناء (١٢٥٨ ـ ١٣٣٩م) « تلخيص اعمال الحساب » .

لقد ترسم هؤلاء العلماء خطى الرعيل الاول من علماء تلمسان القدامى ابتداء من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حينما كانت تحمل هذه المدينة القديمة اسم « اغادير » في عهد الأدارسة الذين بنوا فيها اول مسجد كبير بعد الفتح الاسلامي الذي قاده عقبة بن نافع قادما من مدينة القيروان التي اسسها في تونس ، وجعلوا منها مركزا لنشر مبادىء الاسلام عبر المدن والقرى في المغرب الاوسط (الجزائر حاليا) ، ثم اعقبهم المرابطون في اواخر القرن العاشر الميلادي . وقد شهدت تلمسان في عهدهم ـ ولا سيما في ظل حكم يوسف بن تشفين مؤسس دولتهم ـ ازدهارا بعد معاناة وحصار . وكان اول اعماله بناء عاصمته « تاقرارت » في موقع تلمسان الحالي ، واقامة الجامع الكبير ، واجتذبت تلك النهضة التي عظمت في عهد بني عبد الواد (الزيانيين) واستمرت من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر ، اقطاب الفقه والفكر من شتى البلدان . فوفد الى تلمسان الشيخ عمران ابو موسى المشدالي (٦٧٠ ـ ٧٠٥هـ) ، وكان يدير بها المدرسة التاشفينية ، وهو شيخ مشايخ ابن خلدون ، وكذلك الشيخ اسحق بن ابراهيم التنسي الذي توطن فيها في عهد يغموراسن مؤسس الدولة الزيانية ، وكان يلقي دروسه بمسجدها .

وبفضل هذا الاضطراد في المجال العلمي والتعليمي بالمساجد والمدارس ابتداء من محو الامية والوعظ والارشاد وبث تعاليم الفقه والتصوف حتى التثقيف بالمعنى العام ، وتواتر العلماء طبقة بعد طبقة في سلسلة لم تنقطع حلقاتها عدة قرون ، ارسيت تقاليد في المجال الثقافي والفكري لم تقو على محوها كوارث الحروب التي لحقت بالبلاد . فكان التلمسانيون ينبعثون بالعلم والعرفان من بعد موتهم في الدمار ، وكانما مدينتهم طائر الفينيق الذي ينتفض بين ركام الرماد المحترق ، منطلقا الى الحياة ، محلقا في اجواء الفضاء . ونرى مصداق هذا الواقع الثقافي في شهادة شاهد من الفرنسيين لا يخلو من التعصب للعهد الاستعماري والتجني على العصر التركي ، وهو المستشرق « الفريد بال » ، اذ قال في عام ١٩٢٠ : « لازالت تلمسان مركز الثقافة . ويمتاز المسلمون في هذه المدينة . بحياتهم الثقافية لا عن سكان الارياف فحسب ، بل عن مسلمي المدن الاخرى ايضا » . وبعد ان نسب هذا المستشرق الى الاتراك وحدهم مسؤولية ما ران في عصرهم على بعض المناطق من خمول ثقافي ، متجاهلا الجاني الحقيقي وهو الاستعمار الفرنسي ، واستطرد قائلا : « واليوم ايضا ، رغم الضعف الثقافي الناتج عن ثلاثة قرون ، فانه يمكن العثور على عدد كبير من المثقفين المسلمين وبعض العلماء في تلمسان . وانك لتجد في

احيان كثيرة بقالا ، او بائع تبغ ، او حلاقا ، منهمكا في مطالعة نص تاريخي او ادبي ، او ديني ؛ او جزء من الف ليلة وليلة او مجموعة اغان ، ريثما يأتيه الزبائن » .

وقد كان من نتائج هذا المناخ الثقافي الذي ساد البيئة التلمسانية ، انه رغم المحو الاستعماري المنظم لمقومات الشخصية التاريخية لسكان المدينة ، فقد بقي اتصالها وثيقا بماضيها العربي الاسلامي ، واستطاعت تكوين تراث غني مكنها رغم تلك العقبات والالتواءات من مواصلة حياة ثقافية زاخرة قيمة ، خلعت طابعها التهذيبي على الكثرة الغالبة من اهلها في اوقات فراغهم ، وفي معاملاتهم ، بعد ان كان ذلك وقفا على طبقة الاثرياء . وقد كان هذا التراث الثقافي هو القاعدة التي شادت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الصرح التمهيدي للنهضة العربية الاسلامية في الثلاثينات من القرن العشرين ، فشيدت في تلمسان مدرسة باسم « دار الحديث » افتتحها الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس الجمعية ، وادارها من بعده نائبه الشيخ البشير الابراهيمي ، وكانت تدرس فيها اللغة العربية ، الى جانب الكتاتيب ، وقد تخرج في هذه المدرسة وتلك الكتاتيب كثير من ابناء جيل الثورة الجزائرية التي اندلعت في الخمسينات .

كما انشئت في تلمسان بجهود فردية جمعيات دينية ثقافية ، اهمها جمعية اصدقاء الكتاب سنة ١٩٢٦ ، وكانت مكتبتها مركزا للتنوير وتبادل المصنفات ، وملتقى لطلاب المعرفة ، بل كانت هذه الجمعية ايضا مدرسة للتربية الوطنية ، وبث روح الصمود في مواجهة العدو ، فكان التلمسانيون يقصدونها بحثا عن الوسيلة التي تمكنهم من الاحتفاظ بشخصيتهم العربية الاسلامية ، من خلال الهامش الضئيل الذي تركه الاستعمار ، وهو تعليم مبادىء الدين واللغة العربية ، وذلك قبل ان يستبدل بهذه السياسة نهج القهر والتنكيل . ولقد منحت جمعية اصدقاء الكتاب النور لجمعية أخرى انشئت باسم « اصدقاء الطالب » ، وكانت مهمتها تقديم المساعدة المادية للشبان الجزائريين الذين وصلوا الى مرحلة التعليم العالي .

واليوم تؤتي البذور القديمة والرعاية الحديثة ثمارها ، فتتضاءل الامية بفضل التعليم المجاني وتنفيذ خطط التنمية الاجتماعية ، وتتزايد المدارس بمختلف مراحل التعليم ، وينشأ مركز جامعي سنة ١٩٤٧ يضم في هذا العام ١٧٠٩ طالبا . ويصدق القول ان تلمسان اليوم التي احتضنت ملتقى الفكر الاسلامي مرتين ، هي ابنة تلمسان الامس ، التي دافعت عن مقوماتها العقائدية واللغوية والثقافية ، وخاضت معارك طاحنة في سبيل الوطن ، واستحقت ـ بمن انجبت من مفكرين وباحثين وتجاوزت شهرتهم ارضها الى ارجاء العالم الاسلامي ، بل الى بلدان كثيرة خارج هذا العالم ـ ان تسمي عاصمة الفكر الاسلامي جنبا الى جنب مع القاهرة وفاس والقيروان والمدن الاندلسية في العصر الوسيط ، ومازالت كذلك حتى اليوم .